وهذا النمو الغريب يكون في الرجال والنساء . قيل ان امرأة جرمانية اسمها ماريا شد من نمت فيها القوى العاقلة حتى صار يضرب بها المثل في العقل والبراعة وهي بنت صغيرة . فانها لم تبلغ السنة السادسة حتى توصّلت من نفسها دون ان يعلمها احد الى تخريم الورق ادق التخريم وفي الثامنة تعلمت في بضعة ايام صناعة تصوير الزهر تصويرًا يدهش الناظرين وفي العاشرة تعلمت التطريز والنقطة في خمس ساعات . الّا انها لم تدرك المعارف السامية ادراكًا غريبًا حتى بلغت الثانية عشرة . وحينئذٍ كان اخوتها يدرسون في الغرفة التي تجلس فيها . فكانت اذا غلطوا ترد هم الى الصواب بمجرّد سمعها اياهم يتلون مثالهم امامها . وقد حصّلت من العلوم والمعارف ما يكاد لا يصدّق فانها تعلمت العبرانية والسريانية والكلدانية والعربية والحبشية واليونانية واللاتينية والايطالية والفرنساوية والانكليزية والفلمنكية السفلى والجرمانية وامتازت في العلوم الطبيعية والرياضية والعقلية والموسيقى والنحت والتصوير والسبك . وسبكت مثالًا لها من الشمع نقلاً عن صورتها في المرآة وهو من البدائع التي تشهد لها بالبراعة

ومثلها امرأة هنوفرية اسمها دوروثي شلوزر سمت حتى نالت اسمى القاب المدرسة الكلية في كتنكن ولُقّبت دكتورة في الفلسفة وهي بنت سبع عشرة سنة . وقبلما بلغت الثالثة تعلمت الجرمانية السفلى ولما بلغت السادسة تعلمت الجرمانية والفرنساوية ودرست عشر مسائل في الهندسة فقط فصارت تحل المسائل الهندسية العويصة . ثم درست لغات عديدة بسرعة عجيبة واتقنت درس اليونانية واللاتينية وسائر آدابها قبلما بلغت السنة الرابعة عشرة . ودرست سائر العلوم والفنون ولم يزد على اجتهادها اجتهاد احد من الناس فانها البست لباس النملة ونزلت الى اعمق المناجم في غاب هوز لتفوق غيرها في علم المعادن

غليليو غليلي

تابع ما قبله

فلما بلغ دوق طسكانا ما كان من علم غليليو واكتشافاته واختراعاته وبعد صيته وسعة شهرته اجازهُ بالف فيورين وجعلهُ فيلسوفهُ ورياضيهُ الخاصّ وقطع له مالًا وافرًا فاغترّ غليليو باحسانه فترك مدرسة پادوى حيث كان آمنًا في ظل جمهورية فينسيا من كيد الحساد وغدر الاضداد ولحق به ليكون هدفًا لسهام اللائمين وعرضةً لاعتداء المبغضين

وشاعت تعاليمهُ في الآفاق ولهج الناسُ طرًّا بذكرها فساء ذلك اولي العلم في تلك الايام وانكروا تعاليمهُ مع تحققهم صدقها

وشانُ صدقكِ عند الناس كذبهمُ وهل يطابق معوجٌ بمعتدلِ

فقال بعضهم ان حفر الوهاد واقامة النجاد في وجه القمر البديع لكفرٌ فظيع وقال آخرون ان هذه الاقمار التي يدعي غليليو اكتشافها حول المشتري نقط نور منعكسة من المشتري وقال بعض اساتذة مدرسة بادوى ان الكوكبات سبعة وايام الاسبوع سبعة والجاويف في راس الانسان سبعة فمحال ان تكون السيارات اكثر من سبعة فاراهُ غليليو اقمار المشتري بالنظارة فقال انّا لا نراها بالعين مجرّدة فلذا لا تحسب في عالم الوجود (عثرة ولو طارت) وقال آخرون ان كل هذه تصرفات اوهام واضغاث احلام وآخرون انّا استعملنا النظارة طويلاً فلم نرَ شيئاً ممّا قيل . وكان اعداؤهُ يزدادون عدّاً كلما زادت اكتشافاته وذاعت تعاليمهُ ويتصدون لمقاومتهِ كلما سنحت لهم الفرصة ولكنهُ كان يردُّ كيدهم في نحورهم . ولما لم يجسروا ان ينازلوهُ في العلم ارادوا ان يمسكوهُ بالدين . وكانوا يعلمون انهُ يعلّم مذهب كوبرنيكوس ان الشمس ثابتة والارض تدور حولها خلافاً لتعليم تلك الايام . وكان ديوان التفتيش حينئذٍ في ابّان صولهِ وطولهِ لا يجادَل في حكم ولا يخالَف في كلمة فعملوا على ايقاع غليليو في يدهِ . واذ كان اكثرهم من الاكليروس واللاهوتيين لم يصعب عليهم ان يحكموا بان مذهب كوبرنيكوس مناقض لما في الكتاب المقدس . فلما علم غليليو بحكمهم كتب رسائل الى ذوي السطوة يبيّن بها رايهُ ويثبت موافقة مذهب كوبرنيكوس لما في الكتاب المقدس اذا فُسّر الكتاب حق التفسير والاّ فان ما في الكتاب يخالف كلا المذهبين . وبذل ما في وسعهِ لينبه خصومهُ الى الحق فلا يغرّروا حكمهم ولكنهُ لم يلقَ مجيباً ولا اصابَ لبيباً

ونارٍ ان تفخمتَ بها اضاءت ولكن انتَ تنخ في رمادِ

بل ما زادت رسائلهُ خصومهُ الاّ هياجاً وعتوّاً فادّعوا عليهِ انهُ يعلّم تعاليم مخالفة للكتاب المقدّس واجبروهُ على الحضور الى رومية (والبعض يقول انهُ حضر من نفسهِ) وسدُّوا آذانهم عن سمع حججهِ واثبتوا الحكمين الآتيين : ان القول بثبوت الشمس في مركز العالم قول فاسد وفلسفة كاذبة ومذهب هرطوقي محض لمناقضتهِ الصريحة لما في الكتاب المقدّس وان القول بعدم وجود الارض في مركز العالم وعدم ثبوتها وبدورانها على محورها قول فاسد وفلسفة كاذبة ومغلوط على الاقل من جهة الاعتقاد الديني . فحار غليليو من حكمهم وجادلهم فيها حتى افضى الجدال الى انقياد مخطم عليهِ فنهوهُ عن التعليم بدوران الارض وبثبوت الشمس خطّاً وشفاهاً وتوعدوهُ بالعقاب اذا لم يمتثل النهي . فعاد غليليو الى فلورنسا بالذل والخيبة ونار الحق تضطرم في احشائهِ وشرع في تصنيف كتاب على نمط المحاورة بين رجل من المحامين عن تعاليم تلك الايام سماهُ سمبليشيوس ورجلين آخرين من الطالبين معرفة الحقائق واودعهُ كل ما عندهُ من البراهين على دوران الاراض وما عند الخصوم على ثبوتها

وقضى ست عشرة سنة على تصنيفه وتنقيحه حتى جاء كتابًا بديع العبارة حسن الاسالیب دقیق التضمین. ثم جاء به الى رومية وعرضه على من ينتقد الكتب لكي لا تكون مخالفة للدين وطلب اليه ان يحذف منه كل ما يفتح عليه بابًا للقيل والقال فقرأه المنتقد غير مرة واقرأه لغيره من المنتقدين ولما لم يجد فيه علة كتب له بيده اجازة بطبعه. وكان غليليو لا يريد طبع الكتاب برومية خوفًا من ان يعرفه خصومه فاستأذن المنتقد بطبعه في فلورنسا لاسباب ادّعى بها وتعهّد له بان يعرض ما يطبعه على اي منتقد عينه له هناك. فاوجس المنتقد خيفة من شرّ العاقبة الّا انه عيّن له منتقدًا وطلب منه الاجازة بدعوى انه يريد مراجعتها فلما سلمه اياها ضبطها عليه ولم يستطع غليليو استرجاعها ولا بواسطة دوق طسكانا. ولذلك عوّل على اجازة منتقد فلورنسا فطبع كتابه هناك ولكنه حذرًا من سوء العاقبة جعل غايته الظاهرة من كتابه الاعتذار عن لاهوتي بلاده لحكمهم بان دوران الارض يخالف الكتاب المقدس والمحاماة عنهم امام الاجانب وزعم انه بذلك يصرف عنه غيظهم ويأمن شرهم ولكن

ومن بكُ اصله ماء وطينًا بعيدٌ من جبلّته الصفاء

فان كتابه ما لبث ان ظهر حتى قاموا عليه بصوت واحد. وكان البابا اربان الثامن صديقًا له فرسخ في ذهنه انه هو المقصود من سمبليشيوس في الكتاب واسخطوه على غليليو. ثم سلموا الكتاب لديوان التفتيش فوسّط دوق طسكانا في الديوان ان يقبل له وساطة واكره غليليو على الحضور الى رومة وهو اذ ذاك شيخ ضعيف له من العمر تسع وستون سنة. والبسة الممسوح في ٢٢ حزيران ١٦٣٣ واركعه امام جمهور حافل من المفتشين وغيرهم واكرهه على ان يحكي امامهم ما لقّنه اياه وترجمته: اني انا غليليو اركع امام نيافتكم مسجونًا في السنة السبعين من عمري واعاهدكم على الانجيل الطاهر الذي اراه بعيني والمسة يدي اني ارفض والعن واكره هرطقة دوران الارض الخ[1] ثم حرموا كتابه وحكموا عليه بالسجن الى اجل غير محدود ووضعوا عليه قانونًا بان يتلو ٧ مزامير من مزامير الندامة مرة في الاسبوع على ثلث سنوات. فهذا كان جزاء رجل من اعظم رجال الدهر وابهى فريدة من فرائد الفخر. على انه لحسن حظ الانسانية لم يحبس في سجون المفتشين بل في قصر اصدقائه ولم يُمنع عن استخدام خادمه ولا عن التجوال في القصر. وفي ١٦٣٤ اباح له البابا السكنى في قرية من القرى المجاورة لفلورنسا ولكن تحت مراقبة المفتشين الذين نقل الكتبة انهم كانوا يحرّجون عليه لاشتغاله في العلم ويشدّدون المراقبة غاية التشديد حتى انه لما اعتلّ جسده واسترخص منهم بالذهاب الى فلورنسا ليعالج فيها لم يجيبوا طلبه الّا بعد اربع سنوات تحت شروط صارمة. وما زال غليليو يشتغل في العلم

(١) قيل انه لما قام من امامهم لم يقدر ان يضبط نفسه فقال بصوت خفي E pur si muove (اي ومع ذلك انها لتدور)

تحت الذل والخسف حتى عمي وله ٧٤ سنة من العمر. ثم اصابه خفقان القلب وحمى بطيئة فمات منها في ٩ كانون الثاني ١٦٤٢ وله من العمر ثمان وسبعون سنة وذلك سنة ميلاد اسحق نيوتن شيخ الفلاسفة. ودُفن في فلورنسا واقاموا له بعد ذلك تذكارًا

وكان غليليو معتدل القامة لطيف الاخلاق مهاب الطلعة ولاسيما في شيخوخته حاد الطبع قليلاً ظريف المعاشرة كريمًا مضيافًا محبًا للسكنى في الضياع والعمل في الجنائن ومن اشهر اوصافه حبه لنصرة الحق وازهاق الباطل وكانّ هذا العلاّمة العظيم لم يمت الاّ تحيا آراؤهُ في رياض العلم وتترسخ تعاليمهُ في اذهان العالم فانهُ لم يطل الزمان بعد موته حتى قام تلاميذهُ وابدوا تعاليمهُ واثبتوا دوران الارض وثبوت الشمس وافسدوا احكام خصومهِ واخمدوا بصولة العلم انفاس الجهل والاستبداد وذللوا اعناق البطل لسلطان الحق فان الحق يقوى ولا يُقوَى عليهِ

حادثة غريبة

قد عادت الجرائد الافرنجية الى المناقشة في مسئلة السبرتزم لان بعض العلماء رأوا من اعمال اصحابهِ ما لم يمكنهم ردهُ الى اسباب طبيعية فانحازوا الى المدعين بحجتهِ. ولكن لابدَّ من ان تنقشع الاوهام عن محيَّا الحقيقة فيتضح الحق ويزهق الباطل. وقد رأينا في احدى الجرائد العلمية الاميركانية رسالة في هذا الباب جديرة بالذكر فترجمناها كما ياتي: قال كاتبها مخاطبًا منشئ الجريدة حدثت في بيتي حادثة غريبة اردت ان ابعث بها اليك لعلها لا تخلو من فائدة للباحثين في مسئلة السبرتزم في هذه الايام. وهي ان بيتنا مبنيٌّ على نحو ٢٠٠ قدم من كنيسة فيها ارغن يسمع صوته من بيتنا فحدث اني بينما كنت جالسًا ذات ليلة مع اهلي سمعنا في بداية الصيف والشبابيك مفتوحة سمعنا صوتًا موسيقيًا ظننَّاهُ اولاً صوت الارغن الاّ انهُ كان اعلى منهُ. ثم تاكدنا انهُ لم يات من الارغن بل من البيانو الذي في قاعة بيتنا. وكان هذا الصوت واطئًا كصوت الارغن فانذهلنا كلنا ولاسيما انا لاني من المكذبين بالسبرتزم فحاولت ان اقنع اهلي ان لهذا الصوت سببًا طبيعيًا ولابد من كشفهِ عاجلاً او آجلاً. وما لبث هذا الخبر ان شاع حتى اقبل الناس علينا افواجًا وفي جملتهم اناس من اهل السبرتزم من يُسمَّون فحكموا ان هذا الصوت صوت الارواح واشهروا ذلك

اما انا فتفحصت عن سبب الصوت طويلاً ومعي الشمس عالي فاي والدكتور بدول ولم نترك مكانًا في البيت الاّ بحثنا فيهِ جيدًا فلم نقف على سبب. وفيما كان البيانو يصوت ليلةً حسب العادة قال لي واحد من جيراننا مَنْ من المولى كان يلعب على هذا البيانو اكثر من غيرهِ فقلت لهُ فلانة فقال أروح فلانة تلعب الآن ولم يتم قولهُ حتى خيل لنا ان الصوت زاد قوة فاقشعرت ابداننا ولبثنا